الموبقة الخامسة

الإفراط والتفريط في الإنفاق.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾(البقرة:143)

قلنا فيما سبق أن الخلق الحسن هو: خلق محمود بين خلقين مذمومين؛ فالشجاعة هي خلق كريم بين خلقين هما الجبن والتهور، والكرم يتوسط البخل والإسراف، فالكرم للضيف كما عرفه بعضهم هو:أن لا تبخل بالموجود، وأن لا تطلب المفقود.

من مضار البخل.

للبخل مضار اجتماعية كثيرة، إضافة إلى أن مضار البخل تطال معظم جوانب الحياة النفسية منها والصحية والتعليمية والاقتصادية وغيرها.

فالبخيل إذا مرضت ابنته واشتد مرضها ولم يرسلها إلى الطبيب من أجل العلاج، فإن المرض يستفحل بجسمها حتى تصاب بمرض عضال، وتترك المدرسة، ثم ينتهي بها الأمر إلى الوفاة، وبذلك يكون البخيل قد ارتكب عدة جرائم بحق ابنته، لأنها عندما تركت المدرسة ازداد جهلها، فزاد في المجتمع جاهلاً جديداً.

وعندما أصيبت بمرض عضال حوّل فرداً من أفراد المجتمع إلى إنسان يأكل ولا ينتج، ناهيك عن مقاساته للآلام الشديدة، إضافة إلى الآثار النفسية التي تحيط بهذه المريضة وبأسرتها، وما يتحمله المجتمع من نفقات على هذه المريضة بعد أن انتقلت مسؤولية علاجها من والدها إلى الدولة.

كل ذلك وأكثر حصل بسبب بخل الوالد ببضع دراهم أو دنانير هي تكلفة العلاج والمرض في بداياته.

وقد يتساءل بعض الناس عن مضار البخل الاقتصادية، لأن البخل اقتصاد بحد ذاته وهو يؤدي إلى مخاسر مادية، لا العكس؟

وفي الحقيقة أن البخل كله مضار، وليس له فوائد، وحتى من الناحية الاقتصادية فإنه مدمر، فالذي يبخل على زوجته بخمسة دنانير ثمن العلاج فيستفحل المرض بها وتموت، فإنه يخسر المهر الذي دفعه، ثم يخسر المهر الجديد الذي سيدفعه للزوجة

الجديدة، فهو دفع أضعاف أضعاف ثمن العلاج، ثم هيهات له أن يجد امرأة تقبل به زوجاً بعدما عرفت بقصته مع زوجته السابقة.

كما أن الذي يبخل على أولاده بالطعام المفيد، فلا يأكلون الفاكهة إلا في المناسبات، ولا يتذوقون اللحم إلا في عيد الأضحى، وحتى الخضار لا يأتيهم به ولو مرة في الأسبوع، فماذا يحدث لهم ؟

لا شك أنهم سيعيشون في جحيم، وستكون حالتهم النفسية سيئة جداً، لأن الولد إذا رأى الفاكهة بيد ابن الجيران تنهد لها، وتمناها، وحسده عليها، وقد تؤدي شهوة شيء وعدم تناوله إلى الوفاة.

كما أن الحسد يقتل صاحبه، وقد يصاب أهل البخيل وأولاده بالمرض بسبب نقص الفيتامينات الضرورية للجسم، عدا عن الأخطار الاجتماعية والنفسية التي تتعرض لهما عائلة البخيل، إذ أنهم لا يجدون الشفقة والرحمة التي يجدها الفقراء؛ لأنهم ليسوا فقراء، وإنما مبتلون بوالد فقير النفس:

إن البخيل وإن أفاد غنى لترى عليه مخايل الفقر.

علاج البخل.

عالج الإسلام البخل بطرق شتى، وبحث عن جذور البخل واجتثها من أصولها، ونقّى المجتمع المسلم من هذه الخصلة الذميمة، ومن الوسائل التي عالج بها الإسلام البخل ما يلي:

1-نهى الإسلام عن البخل بالشيء المفيد الذي لا يكلف جهداً ولا مالاً، فعدّ ترك الصلاة على النبي ﷺ إذا ذكر، من باب البخل.

2-توضيح معنى البخل، فالبخل هو عدم إعطاء الحقوق لأصحابها.

3- توضيح معنى الكرم المضاد للبخل، وأفضل أنواع الكرم إرشاد الناس إلى دين الله عز وجل، فقد قال ﷺ:"... وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ..."(.رواه مسلم 720).

4.التدرج في الأمور، الأهم فالمهم، قال ﷺ:"دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ"(رواه البخاري 3318).

5-إخفاء النعم عمن لا يملكها، فنهى الإسلام عن التبجح بالنعم أمام الفقراء الذين لا يملكون شيئاً، فلا تدع طفلك يخرج بالفاكهة إلى الشارع، ولا تؤذ جارك الفقير برائحة شواء اللحم.

6.حث الإسلام على الهدية، لأجل المحبة، والإحسان إلى الآخرين.

7.أمر بأداء الزكاة لمستحقيها، وحذر من منعها، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ التوبة(34-35).

8-اللجوء إلى القضاء، لتحصيل الحقوق في حال التقصير بأدائها، كنفقة الزوجة، وأداء الزكاة، وإقراء الضيف في المكان الذي لا توجد فيه مطاعم وفنادق...الخ.

9-. الترهيب من البخل والتحذير منه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾سورة ال عمران، الآية (180).

وقال أيضاً:﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾سورة النساء، الآية (37).

وقال ﷺ:"لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ"(رواه أحمد 14).

10.الحث على التخلص من البخل، فقال عز من قائل:

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾(9الحشر.

ولذلك فإن الله تعالى لم يبخل برزقه عن الكفرة والعصاة، وحين طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام من الله أن يرزق المؤمنين

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ، أجابه الله تعالى بأنه سيرزق الكافرين أيضاً في الدنيا، وحسابهم في الآخرة شيء آخر:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾126البقرة.

النهي عن التبذير.

من الصعب نهي البخيل عن بخله، ولكن الأصعب من ذلك، هو نهي المسرف عن إسرافه، فحين تجد بعض الناس إذا ما أراد الوضوء، فتح حنفية الماء على سعتها، ثم بدأ يكفكف ذراعيه، ثم يخلع حذائه، ثم يبدأ بالوضوء.

وآخر يريد ان ينظف أسنانه فيفتح حنفية الماء، ويبدأ بتنظيف أسنانه والماء ينهمر بغير فائدة حتى ينتهي من عملية التنظيف.

والنبي ﷺ ينهى عن الإسراف بالماء، فقد مَرَّ ﷺ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ:" مَا هَذَا السَّرَفُ؟ فَقَالَ أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: نَعَمْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ"(ابن ماجه 425).فما الفائدة من فتح الماء بلا فائدة؟

وقد روى لي أحد الأصدقاء أن عنده في البيت ثلاث حنفيات لا تغلق تمام الإغلاق، فقام بوضع وعاء تحت إحداها في الليل يتسع لعشرة ليترات من الماء، وعندما استيقظ لصلاة الفجر وجد الوعاء قد امتلئ تماماً، فإذا قلنا إن فترة النوم هي ثماني ساعات، فمعنى ذلك أن الحنفية الواحدة تهدر 30 لتر يومياً× ثلاث حنفيات=90 لتر في اليوم من المياه الصالحة للشرب تذهب هدراً.

وهذه الكمية إذا تكررت عند كثير من العائلات، فإن هذا يعني هدر كميات كبيرة من المياه نحن بأمس الحاجة إليها من أجل سد حاجة آلاف البشر الذين يعانون من نقص مياه الشرب، ويضطرون لشرائها بأثمان مرتفعة، وبالتالي ينعكس هذا سلباً على الاقتصاد الوطني، وستضطر الدولة للبحث عن مصادر جديدة للمياه أو اللجوء إلى شراء المياه من الدول المجاورة.

وإذا كان الفرد لا يعدّ هذه الهدر الغير مقصود مشكلة، فإنه من منظور آخر يعدّ كارثة بيئية، وجريمة بحق المجتمع، ولهذا نهى الإسلام عن الإسراف، لأنه لا يضر بمصلحة المسرف وحده، بل يتعدى ذلك ليؤثر سلباً على المجتمع بأسره، فإضافة إلى هدر المياه، من جهة، فإن هذه الكميات تشكل عبئاً آخر على الصرف الصحي، وكل هذا بسبب خراب جلدة الحنفية التي لا تكلف أكثر من عشرة فلسات.

ثم إن المرء عندما يدخل إلى دائرة حكومية في الصباح الباكر يجد أن الكهرباء لا تزال مشتعلة من اليوم الماضي أو الذي قبله، وذلك لأن الموظف لا يدفع فاتورة الكهرباء، ولا يدري كم تكلف الدائرة شهرياً، فأين تقوى الله عز وجل؟ وأين دعوانا بأنا نعمل من أجل المصلحة العامة؟

إن هذه الأمة التي أنجبتنا، ورعتنا في صغرنا، وأنفقت علينا من حرّ مالها لتدريسنا، وتعليمنا، وتنشئتنا، وقدمت الشهيد تلو الآخر لحمايتنا، وتوفير الأمن لنا، وحماية أموالنا، وأعراضنا، ولا تزال تدفع لنا الرواتب الشهرية للعاملين فيها، والمعونات لغير القادرين على العمل، ثم تعدنا بالتقاعد، وتأمين مستقبل مشرق لأبنائنا، فإن هذه الأمة تستحق منا أن نبادلها حباً بحب، ونضع أيدينا بأيديها للنهوض بهذا المجتمع نحو الأفضل.

ألا تستحق هذه الأمة أن تضع يدك على زر الكهرباء لتطفئ نور الغرفة التي لم يبق فيها أحد؟ وأين أنت من قول الله عز وجل

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ 141الأعراف

فإذا دخلت تحت هذا الشعار، فويل لك، وويل لأمك وللأمة التي ولدت رجلاً لا يحبه الله تعالى.

<u>ومن مظاهر الإسراف:</u> أولئك الذين تضع الدولة تحت تصرفهم سيارات خاصة بهم كي يسارعوا في إنجاز المهام الموكلة إليهم، وحتى لا يتأخروا في إنجاز مصالح المواطنين، ولكن هؤلاء يسخِّرون هذه السيارات لأغراضهم الخاصة، ويقضون حوائجهم الشخصية بواسطتها في وقت الدوام الذي يفترض أن ينجزوا به أعمالاً عامة لخدمة الأمة، حتى أن بعضهم يصيد الأرانب البرية بواسطة هذه السيارات، فأين يذهب هذا من عقاب الله يوم القيامة؟!

وأما الذين يتفاخرون في بناء القصور الفخمة، ويضعون بها أرقى وأغلى أنواع الأثاث، وعندما يموت يعرض هذا القصر للبيع بمليون دينار فقط وهذا المبلغ هو أقل من نصف سعر التكلفة، والناس يعرضون عن شرائه بهذا الثمن المغري، ذلك لأنه لا يوجد به سوى غرفة نوم واحدة، إذ أن صاحبه كان محروماً من نعمة الأولاد، فلو بنى

مصنعاً بثمن هذا القصر، فكم ستستفيد منه الأمة وتستغني عن بعض السلع المستوردة؟ وكم سيعمل فيه من أبنائها العاطلين عن العمل؟وكم أسرة ستعيش من إيراده؟

وكل هؤلاء سيترحمون عليه، ويدعون له بعد موته، وسيبقى ذكره خالداً إلى الأبد، بدل أن يلعنه ورثته الذين جاءوا ليلتهموا أمواله التي كان يبخل عليهم بها في حياته.

وأما حفلات الأعراس التي يظهر فيها الكرم المصطنع، وتذهب أكوام الرز واللحم إلى حاويات القمامة، وكثير من الناس يتنهدون لرؤيتها، ولكنهم لا يدعون إلى مثل هذه الحفلات، بل يدعى إليها الذين عافوا اللحم،وجاءوا فقط ليظهروا أزياءهم، وحلي زوجاتهم في هذه الحفلات، ثم تطلق آلاف العيارات النارية في الهواء، بدل أن تدخر ليوم تدافع به الأمة عن كرامتها وأعراض أبنائها وبناتها!

و كما قد يؤتى بالمغنيات والراقصات لإحياء هذه الحفلات، وبدل أن يشكر الله يشرب الخمر، ثم يطلق النار في الهواء فيصيب ابنه، فإذا تأكد من موته أطلق النار على نفسه، فكانت خاتمته في الدنيا عصيان الله وقتل نفسه بغير حق، وبانتظار عذاب الله في الآخرة. [1]

ثم إن الإقبال على البضائع المستوردة وترك الصناعة الوطنية إلا نوع من أنواع الخيانة الوطنية، فالذي يستورد البلاط من إيطاليا في حين أن معامل البلاط الوطني لا تدري أين تذهب بإنتاجها، فيزيد في وتيرة العمل لدى أمة طالما سفكت دماء المسلمين على مر عقود من الزمان، بينما يتعطل العمل في معامل أمته التي قدمت له كل شيء، أليس هذا نوع من الإسراف، بل نوع من الخيانة؟

فالنظرة الاقتصادية السليمة أن نشجع منتجات بلادنا، ونصدر منها إلى البلدان الأخرى؛ لنحصل على الأموال اللازمة من العملة الصعبة التي نستطيع أن نؤمن بها السلاح لأمتنا؛ لتدافع عن أبنائها، وأرضها، وعن عقيدتها ومعتقداتها، وإلا فسنبقى شعب مستهلك، نبيع المواد الخام من إنتاج أرضنا ومياهنا بأبخس الأثمان، ثم نعود ونشتريها بعد تصنيعها بأيدي أبنائنا الذين هاجروا بحثاً عن لقمة العيش في ديار الكفر

(1)إقرأ إن شئت كتابي بر الوالدين بعد الزواج وإلا فخمس دواهي.

بأغلى الأسعار، لنستنزف أموال الأمة فلا تجد ما تشتري به شيئاً يرد عنها عدوها، وبالتالي تقبل بما يمليه عليها ولو كان في غير مصلحة أبنائها. فويل لأمة تأكل مما ينتج غيرها، وتنتج بأيدي أبنائها أسلحة لتدمر به ذاتها.

الـــبركـــة

مفهوم لا يدخل تحت الحاسوب

حينما سُئل الحاسوب – أذكى اختراع توصل له الإنسان حتى الآن–:

إذا كان عشرة عصافير على شجرة، ثم جاء صياد وأطلق النار على العصافير، فأصاب اثنين منها، فكم عصفوراً يبقى على الشجرة؟

أجاب الحاسوب بإصرار بأنه يبقى ثمانية عصافير على الشجرة، ولكن أي عاقل يعرف بأن العصافير طارت جميعها، ولم يبق على الشجرة عصفور واحداً حينما سمعت صوت البارود، إلا أن الحاسوب لا يعرف هذه الحقيقة.

أسوق هذا الكلام في مقدمة كلامي عن البركة التي لا تدخل تحت نظام الحاسوب ؛ ذلك أن عوامل كثيرة تدخل في العملية الحسابية عندما تتعلق المعادلة بأمور إنسانية.

ولذلك نجد أن الكلبة تلد مرتين في العام الواحد، وتضع في كل مرة بمعدل ستة جِراء، وهي شرسة تستطيع الدفاع عن نفسها، ولا يأكلها الإنسان أو الحيوان، ومع ذلك نجد أن عدد الكلاب في جميع أصقاع الدنيا أقل بكثير من عدد الأغنام.

في حين أن الشاة لا تلد سوى مرة واحدة في العام، وتضع مولوداً واحداً في أغلب الأحيان، ويأكل منها الإنسان، والوحوش، وغيرها، فما السبب في ذلك؟ إنها البركة .

وإذا نظرنا إلى أحوال الأغنام والكلاب نجد سر هذه البركة، فالأغنام تنام في بداية الليل وتستيقظ في الصباح الباكر، في حين أن الكلاب تسهر حتى الصباح، فإذا أذن المؤذن نامت لا تلوى على شيء، والصباح الباكر وقت مبارك فقد روى صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهﷺ

:(" اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا قَالَ وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا وَكَانَ إِذَا بَعَثَ تِجَارَةً بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ")

وإذا طبقنا ذلك على الأمم وجدنا أن اليهود يعود تاريخهم إلى أكثر من خمسة آلاف عام، بينما المسلمون يعود تاريخهم إلى أقل من ألف وخمسمائة عام، ومع ذلك فإن أمة اليهود لم تصل إلى ربع العشر مما وصلت إليه أمة الإسلام، لماذا يا ترى..؟

الجواب بسيط: إنها البركة، البركة التي تأتي مع صلاة الفجر، ومن الصلاة الإبراهيمية التي نقرأها في كل صلاة: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم... في العالمين إنك حميد مجيد.

وما هي سبب البركة التي نزلت على سيدنا إبراهيم عليه السلام؟

إن إبراهيم عليه السلام كان يعيش في أمة مصرة على الكفر والشرك والعناد والتكبر على آيات الله، ولكن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان أمة في رجل كما وصفه الله تعالى بقوله: في سورة النحل آية (120).

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

فكان القنوت لله سجيته، والميل عن الكفر طبيعته، والبعد عن المشركين سمته، والشكر لله مزيته، وتعداد نعم الله تعالى عمله، فمن هنا استحق الاجتباء والهدى إلى صراط الله المستقيم جائزة في الدنيا والفوز بالجنة والرضوان ثواباً في الآخرة.

ولقد بارك الله تعالى في إبراهيم، فكم من أمة تحبه وتتشرف بالانتساب إليه، فالعرب تفتخر به وتدعي أنها تنتسب إليه، وتسير على نهجه، وكذلك اليهود يقولون: نحن أحفاده، والنصارى يتباركون به، ولكن الله فصل بين المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، فها هو سيدنا إبراهيم يتبرأ من أبيه حينما عرف بعداوته لله:

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)، (التوبة 114). ويوم القيامة لا ينفع الإنسان إلا ما قدم، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ). (الشعراء89).

وقد حلت البركة على سيدنا إبراهيم وهو يُلقى في النار إذ أوحى الله إلى النار بقوله:(يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) الأنبياء آية (69)، وحلت على ابنه إسماعيل حينما قدم للذبح(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيم)،ولا تزال البركات تنهال على آل إبراهيم، وآل محمد الذين هم من آل إبراهيم.

فأمة محمدﷺ

مطلوب منها أن تعود إلى ينبوع البركة الذي لا يقع تحت حسابات البشر ، أو مفهوم الحاسوب، وذلك بالعودة إلى القرآن الكريم المبارك، والى كل آية من آياته.فالوحدة فيها البركة، والاجتماع على الطعام سبب في بركته، فقد شكا بعض الصحابة إلى النبيﷺ

:قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ قَالَ: ("فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، قَالُوا: نَعَمْ قَالَ فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ

عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ") .

كما أن الاستيقاظ المبكر فيه البركة، وقد تقدم أن الله يبارك لهذه الأمة في بكورها،والزواج المبكر فيه البركة، لأنه يحصن الشباب من الوقوع بالفواحش والمحرمات، والتقوى سبب رئيسي من أسباب البركة، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

والتقوى لم تدخل يوماً تحت حسابات المادة أو تخرصات البشر، ولكن إذا ابتعدوا عن منهج الله القويم فسيصدق فيهم قول النبيﷺ

(" يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ")

وهذا ما تحقق فينا فعلاً، ولكننا عزاؤنا في قول النبي ﷺ

الآخر إذ يقول جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ– رضي الله عنه – سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ

يَقُولُ:" لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ- عليه السلام - فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا فَيَقُولُ لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ"(رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم(156).

ومعلوم أن الشجرة التي لا تقلم تهرم بسرعة، والدم الزائد في الجسم إذا لم يخرج فإنه يهلك صاحبه، والأمة التي لا تجاهد يطمع بها أعداؤها.

وأخيراً وليس آخراً:

فإن حسابات المادة شيء آخر غير ما يقوله الله تعالى لعباده المؤمنين إذ يقول جل وعلا:

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) سورة البقرة آية (268و269).

وكذلك قول النبي-صلى الله عليه وسلم-:"مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ " مسلم في البر والصلة برقم(2588).

ومعلوم في المقاييس المادية أن الصدقة التي تخرج من المال تنقصه، ولكن في حسابات الله، فإن الصدقة سبب في تطهير هذا المال ونمائه، إذ يعوض الله صاحب المال بالبركة التي تزيد هذا المال ولا تنقصه، وهذا مفهوم لا يدخل تحت الحاسوب، أو تحت حسابات المادة.

قصة وعبرة:

كان هناك رجلان متجاوران أصيب طفليهما بالحمى، وانتابتهما أعراض مرضية واحدة، الأول نقل ابنه إلى مستشفى خاص، وأجرى له العديد من التحاليل الطبية، لاشتباه الأطباء بوجود مرض عضال لدى الطفل، وأخيراً تبين أن الطفل كان سليماً من أي مرض، ولكنه كلف والده مبلغاً كبيراً من المال

الطفل الثاني: وضعه والده في حجره وقرأ عليه سورة الفاتحة بقلب متوجه إلى الله، ثم أعطاه كأساً من الليمون مع حبة أسبرين، وفي اليوم التالي خرج الطفلان معاً

إلى الشارع يلعبان، في حين أن الأول كلف والده مبلغاً كبيراً من المال، أما الثاني فلم يكلف والده شيئاً.

ورجلان آخران أصيب كل منهما بحصوة في الكلى؛ أجريت للأول عملية جراحية كلفته خمسمائة دينار، والثاني لا يملك هذا المبلغ، فأشار عليه أحد العارفين بطب الأعشاب بأن يأخذ بيضتين ويغسلهما جيداً ويضعهما من غير كسر في كوب، ثم يملأ الكوب بعصير الليمون الطازج، ويضع الخليط في أسفل الثلاجة لمدة 24-36 ساعة، ثم يحرك الخليط جيداً بعد أن يكون قشر البيض قد ذاب في عصير الليمون ويشرب منه على الريق ثم ينتظر لمدة ساعتين ويتناول بعدها فطوره، وبعد ذلك يراقب خروج الحصاة مع البول، وبالفعل خرجت الحصاة بعد ست ساعات من تناوله الدواء، من غير جراحة ولا ألم، وبتكلفة مادية لا تكاد تذكر. .

وهذا الكلام لا نسوقه لتشجيع الناس على عدم الذهاب إلى الطبيب، فديننا يأمرنا بذلك، ويحثنا على التداوي، إذ يقول – صلى الله عليه وسلم-:" (تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ)، ولكن قد يعجز الإنسان عن ثمن العلاج أو أجرة الطبيب، فييسر الله تعالى له مثل هذه الوصفات اليسيرة، لأن الشفاء أولاً وأخيراً بيد الله تعالى.

وهناك وعدان أحدهما من الله، والثاني من الشيطان، إذ يقول تعالى:(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) سورة البقرة آية (268و269).

فالشيطان يعد الإنسان بالفقر، كيلا يتصدق، ويقول له: إن تصدقت نقص مالك، وأصبحت فقيراً، ثم يأمره بالفحشاء، فيزين له الفواحش حتى يقع بها، كالربا، والزنا، والكبر، والحسد، وترك الزكاة، وهو بذلك يأمر صاحبه بزيادة السيئات وإنقاص الحسنات، حتى يؤدي به في النهاية إلى نار جهنم، والعياذ بالله، بينما الله سبحانه وتعالى يعد بالمغفرة والفضل (وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا)، المغفرة للذنوب إذا رافقتها التوبة من العبد، والفضل والزيادة، في الأموال، والمباركة فيها إذا أُنفقت لوجه الله تعالى، (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) واسع البركة، عليم بما في الصدور، وعليم بما ينفعنا ويضرنا، ولهذا فهو:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)، ولكن من يدرك هذه الحقيقة غير ذوي العقول النيرة:(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)،

ويقول تعالى في آية أخرى(وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) سبأ آية (39).

ولا يعني هذا أن نجرب الله تعالى، فالله تعالى لا يُحارب، ولا يُجرّب، وفي الوقت نفسه لا يجوز لنا أن نتصدق بما لدينا من مال وعيالنا يموتون جوعاً، لا يجدون ما يأكلون، فالله تعالى يقول: (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ) "والعفو: ما سهل وتيسر وفَضُلَ، ولم يشق على النفس إخراجه...والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم، فتكونوا عالة"(.انظر: تفسير القرطبي لهذه الآية سورة البقرة آية (219).

قصة: ذهب شيخ جليل إلى بريطانيا لأجل العلاج من مرض عضال ألمّ به، وحضر إليه صهره من سويسرا ليطمئن على صحته، وذات يوم خرج الشيخ مع صهره إلى حديقة الحيوان، وفي الطريق قال الشاب للشيخ: لا أدري لماذا حرم الإسلام علينا أكل لحم الخنزير بالرغم مما يقال عنه بأنه كثير التوالد سمين اللحم؟

فسكت الشيخ ولم يرد على صهره ليتربص الفرصة المناسبة، للرد عليه،وعندما وصلوا إلى حديقة الحيوانات، وتجولوا بها شعروا برائحة كريهة، تزداد رويداً رويداً، فلما وصلوا إلى حظيرة الخنزير، فوجئوا بنظافة المكان، ولكن الرائحة شديدة النفاذ، وبعد قليل وإذا بالخنزير يتغوط ثم يستدير ويأكل مما تغوط، فصاح صهر الشيخ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) سورة البقرة آية (172-173).

فالله سبحانه تعالى أحل لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث، فلا ننظر لكثرة اللحم، أو جمال المنظر، ولكن المهم في الموضوع: الحل والحرمة قال تعالى:

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)(سورة الأعراف آية (157).

قصة فيها عظة وعبرة:

يروى أنه بينما كان سيدنا عيسى عليه السلام يسير من قرية إلى قرية يدعو إلى توحيد الله عز وجل، صادف في إحدى جولاته رجلاً في الطريق فصاحبه لعله يهتدي، فمرا بتنور يبيع الخبز، فاشترى سيدنا عيسى عليه السلام ثلاثة أرغفة من الخبز واستودعها صاحبه، فلما حان موعد الغداء جلسا تحت شجرة، وقال عيسى عليه السلام للرجل أخرج الأرغفة الثلاثة، فقال:

ليس معي سوى اثنان ، فقال له عيسى عليه السلام: أسألك بالذي خلقك، وشق سمعك وبصرك، وخلق السماء والأرض، أين الرغيف الثالث؟ فقال والله لا أعلم، فنادى عيسى عليه السلام على غزال من بعيد فجاء الغزال –بأمر الله– فقال له: كن مذبوحاً مشوياً بإذن الله، فكان ذلك، فأكلا وشبعا، ثم قال للغزال : ارجع كما كنت بإذن الله، فكان كذلك بإذن الله، فقال لصاحبه: والآن وبعد أن استغنينا عن الخبز وأكلنا اللحم فبالذي قدّرني على هذه المعجزة، من الذي أخذ الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: لا أدري.

نظر سيدنا عيسى عليه السلام إلى ثلاثة أكوام من التراب فقال لها كوني ذهباً بإذن الله تعالى، فكانت كذلك، ثم نظر إلى الرجل وقال له: هذا كوم لي، وكوم لك، وكوم للذي أخذ الرغيف، فقال اللص : أنا الذي أخذت الرغيف، وها هو في ثيابي، فقال له عيسى عليه السلام، كلها لك، ولا أريد مرافقة رجل مثلك، وذهب سيدنا عيسى عليه السلام إلى قرية قريبة فذكرهم بالله، ثم عاد من الطريق الذي أتى منه فوجد أكوام الذهب الثلاثة وعندها ثلاثة قتلى، أحدهما صاحبه واثنان لا يعرفهما، فاستغرب الأمر، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يحيي الموتى بإذن الله، فأحياهم ليعرف قصتهم، فكانت كما يلي:

بعدما ترك سيدنا عيسى الرجل مع أكوام الذهب الثلاثة، مر به رجلان فقالا له: تقاسمنا الذهب، وإلا قتلناك وأخذناه وحدنا، فقال: بل أقاسمكما، فتقاسما المال بينهما وقالا له: اذهب إلى المدينة واشتري لنا ثلاثة بغال لنحمل الذهب عليها وائتنا بطعام نأكله، وفي الطريق قال الرجل في نفسه:

آكل أنا طعاماً طيباً في المدينة، ثم آتيهم بطعام مسموم، فيموتان، وأحمل الذهب على البغال وأرحل، في حين أن صاحبيه اتفقا على قتله بمجرد وصوله بالبغال والطعام، وعندما عاد قتله صاحباه، ثم أكلا الطعام المسموم فمات الجميع وبقي الذهب على حاله،

وصدق رسول الله (إذ يقول:" أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ ")

قال تعالى:(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا(25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا(26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(27)وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا(28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا *إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)سورة الإسراء الآيات (25-30).

والحمد لله رب العالمين.